د . جليل كمال الدين

بين السياب ودوستويفسكي

بامكان الباحث ان يقول الكثير عن شخصية السياب الشعرية، والفكرية والفلسفية . وبامكان المناقشين ان يختلفوا في الكثير من جوانب هذا الشاعر العربي الفذ ، فمن نافل القول ان المسالة ليست مسالة ريادة ، بقدر ما هي مسالة اضافة وتعميق للرؤيا والرؤية الشاعرية والفكرية للشعراء المعاصرين ، وللشعر الحديث .

وقد اتى السياب بالكثير في مجالي الرؤيا الشاعرية ،والرؤية الفكرية . ربما انحرف معدل انحراف الخطوط لديه ، ربما مال الى هذا الجانب أو ذاك ، انما المهم ان جوهر السياب ، وجوهر السيابية في الشعر الحديث ، كظاهرة وكانجاز ، ظل نقيا ، ثوريا ، واعدا .

— ١ —

ما وجه الصلة والرابطة بين السياب ودستويفسكي ؟ اين السياب من دوستويفسكي ، او أين دوستويفسكي من السياب ؟ أين القرن العشرون من القرن التاسع عشر ؟ وأين الشاعر العربي الحديث من الروائي الروسي الواقعي في القرن التاسع عشر ؟ وباختصار — فيم اللقاء ، وفيم الافتراق ؟

نسارع فنقول : ان اللقاء يتضمن ، بالضرورة ،الافتراق .

ونحن لم نورد هذا العنوان ، ولم نعقد هذا الحديث عبثا ، او لان اللقاء تام لا يشوبه افتراق . فلو كان السياب نسخة من دوستويفسكي — وهذا لن يكون — اذن لما احتجنا الى مثل هذا الحديث في الادب المقارن . انما المهم انه ثمة وجوها للقاء ، كما هناك ، بالضرورة ، وجوه للافتراق . وبمعنى من المعاني ، يكون لقاء السياب بدوستويفسكي ، هو لقاء الشاعر الحديث بالروائي الواقعي الانتقادي ، فهو لقاء العامليين في رحاب الواقعية الانتقادية ، مهما اختلف بهم الزمان والمكان . شاعرنا من القرن العشرين ، من الارض العربية ، لكنه كان ، في افضل احواله ، واقعيا انتقاديا ، عبر الى الواقعية بعد استنفاد للتجربة الرومانتيكية . وروائينا من القرن التاسع عشر ، من الارض الروسية ، واقعي انتقادي ، عبر الى الواقعية كذلك بعد معاناة واثار رومانتيكية . ويتفق كثير من الباحثين المعاصرين على هذا بخصوص دوستويفسكي ، كما يتفق كثير من الباحثين العرب على هذا ، ايضا ، بخصوص السياب .

هذا من حيث الاسلوب والتجربة ، ويمكن ان يصح القول ايضا بخصوص العالم الشعري والفكري لكل من الشاعر العربي والروائي الروسي .

فالموقف من الدين ، والموقف من الثورة ، والموقف من الاشتراكية، والموقف من البرجوازية ، والموقف من المستقبل ، وبكلمة اعم — الموقف من الانسان يظل متماثلا ،في الكثير ، لدى كل من الشاعر والروائي .

كان (ايفان) احد ابطال رواية دوستويفسكي الرائعة ، الاخوة كارامازوف » يقول :

« او كنت فقدت ايماني بنظام الاشياء ولو كنت مقتنعا بان كل شيء مضطرب لعين شيطاني تركبه الفوضى ، ولو اصابني كل ما يصيب البشر من رعب وخيبة امل ، فاني لن اتخلى عن رغبتي في الحياة » .

ونستطيع ان نقول ما يماثل هذا القول ، او ما يقرب منه على الاقل ، عن شاعرنا السياب . ان السياب لم يتخل عن رغبته في الحياة ، طوال الوقت ، وقد سلك سبلا مختلفة ، وطرقا بالغة التباين للتعبير عن رغبته في الحياة ، وعن حبه الحياة . ولا يقتصر الامر عليه فقط ، بل ان معظم ابطاله لا يتخلون عن الرغبة في الحياة . نجد هذا عند « المومس العمياء » ، وكل ابطال وشخوص اللوحة الحية التي تؤطرها ، ونجده عند « حفار القبور » ،ونجده في « مرثية الآلهة » ، و « غريب على الخليج » ، و « انشودة المطر » ، و « شناشيل ابنة الجلبي » ، و « النهر والموت » ، وكافة قصائد الشاعر الوطنية والقومية .

بل اننا لنجد هذه الرغبة العارمة في حب الحياة والتعلق بها ، حتى عند وريث الشاعر ، على لسان ابنه « غيلان » :

« بابا .. بابا ...
جيكور من شفتيك تولد من دمائك ، في دمائي
فتحيل اعمدة المدينة .
اشجار توت في الربيع .ومن شوارعها الحزينة
تتفجر الانهار ، اسمع من شوارعها الحزينة
ورق البراعم وهو يكبر او يمص ندى الصباح
والنسغ في الشجرات يهمس ، والسنابل في الرياح
تعد الرّحى بطعامهن .
كان اوردة السماء .
تتنفس الدم في عروقي والكواكب في دمائي » .

بل ربما كان حب السياب وابطاله للحياة اشد واعمق من حب دوستويفسكي وابطاله للحياة ، والفارق هنا .. هو فارق العصر ، والتجربة ، والرؤية . وسنظلم كلا منهما ، لو تطلبنا من اي منهما تماثلا تماما مع الآخر . فالعصر والظروف لا ينبغي ان تغيب عن باصرتنا ولو

للحظة . غير ان جوهر السيابية والدوستويفسكية في الموقف من الحياة يتفق في الكثير .

— ٢ —

واذا كان مجتمع دوستويفسكي هو المسؤول ، بالدرجة الاولى (بالطبع ، بالاضافة الى تكوينه السيكولوجي والذهني الخاص) ، عن تعقده وتناقضه ، التي كان يضرب بها المثل ، فان ذات الشيء يمكن قوله عن مجتمع السياب ، فان هذا المجتمع (الى جانب التركيبة الايديولوجية ـ السيكولوجية السيابية الخاصة) ، هو الذي جعل السياب يعاني من بعض الازدواجيات ، وهو الذي جعله يقع في بعض التناقضات المميتة . وحسبنا ان نشير الى المثال التالي :

فقد خطب السياب في المؤتمر الذي نظمته (المنظمة العالمية لحرية الثقافة) الاستعمارية ، تحت اشراف معهد الشرق الايطالي، وهو المؤتمر الذي اسمي ب « مؤتمر قضايا الادب العربي المعاصر » ، (وقد عقد في روما ، في تشرين الثاني ١٩٦١) ، فقال : « .. لكن هناك فئة اخرى من الشعراء العرب الشباب قرأت ايليوت وفهمته وتأثرت بروحه وتكنيكه على السواء .. وساعدت الظروف السياسية التي كانت البلدان العربية تمر بها، حيث الارهاب الفكري وانعدام الحرية ، الى اللجوء الى الرمز ، يعبرون بواسطته عن تذمرهم من اوضاع بلادهم السياسية والاجتماعية على السواء ، وعن آمالهم في انبعاث جديد ينتشلها من موتها .. انه لامر مؤسف حقا الا يبلغ الشعر العربي المعاصر مستوى الواقعية ، كما عرفها الشاعر الانكليزي الكبير والناقد المبدع الموهوب ستيفن سبندر ، في محاضرة له عنوانها « الواقعية والفن » ، وخلاصة تعريفه ذاك هو ان الواقعية الحقة هي تلك التي تمكن الشاعر والفن من تحليل مجتمعه تحليلا يحوي اكبر قدر ممكن من الحقائق . ولا يهم بعد ذاك من اية وجهة نظر انطلق . ولكن الحد الذي بلغه الشعراء التموزيون في الشعر العربي الحديث ، كان يبشر بمستقبل لامع لهم او للشعراء الذين سيسيرون على آثارهم على الاقل . لكن يبدو ان الشعراء التموزيين اصيبوا بخيبة امل . فاقلعوا عن الالتزام كأنهم اتفقوا على ذلك ، وان لم يتفقوا . يبدو هذا الاقلاع عن الالتزام والانصراف الى المشاكل الذاتية والشخصية بل وحتى افتعالها في الآثار الاخيرة لاولئك الشعراء .. ولا اغالي اذا قلت ان نهاية الالتزام الحق في الشعر العربي المعاصر ستكون حين ينتهي هؤلاء الشعراء منه . اما من هو المسؤول عما اصابهم : اهي مجتمعاتهم ام حكوماتهم ام الاوساط الادبية المختلفة ، فذلك ما نتركه للمؤرخين الذين سيكون لديهم الكثير مما يقولون .. هذا هو الادب العربي الحديث في التزامه وعدم التزامه . يحتل الشعر مكان الصدارة منه ، وتقف المسرحية في المؤخرة . فيه نوعان من الالتزام : الالتزام الشيوعي وكلكم تعرفون ما هو « الالتزام » عند الشيوعيين، اولى به ان يسموه « الزاما » ، والالتزام القومي الحزبي وهو لا يختلف عن الالتزام الشيوعي الا في بعض التفاصيل . ثم الالتزام اللاحزبي ، النابع من نفوس الادباء . لقد قدم ادباء هذه الفئة نماذج رائعة من الادب الملتزم ، ولكنهم انحدروا في المجتمع الذي يسيطر عليه التعصب الحزبي الى حد الجنون » .

هذا هو ما قاله السياب ، عام ١٩٦١ في روما ، في المؤتمر الذي نظمته « المنظمة العالمية لحرية الثقافة » . وواضح انه كلام يلائم كل الملاءمة اهواء القائمين على هذه المنظمة ، وممولي ، ورجال الامبريالية في الجبهة الثقافية العالمية . فاما الشعراء التموزيون ، فهم الذين كان يقصد بهم (شعراء الطليعة) ، وهم ـ في الحقيقة ـ شعراء كوزموبوليتيون لا وطن لهم ، رافضون لكل القيم الثورية ، والانسانية ، باسم الحضارة المعاصرة والانسان المطلق المجرد ، ورفض الحزبية والتعصب عندهم يعني رفض الوطنية والقومية والانضواء تحت الراية العالمية للادب الذي يخدم التحلل والتفكك ، والميتافيزيك ، ويحارب الوعي والتفكير العلمي والرؤية الواقعية الموضوعية للاشياء .

ان دفاع الشاعر عن القوميين السوريين وشعرائهم التموزيين وهو دفاع عن القيم الظلامية التي وجدت لنفسها حيزاً في احد جوانب عالمه الكبير الزاخر . واما الالتزام الشيوعي والالتزام القومي ، ورفض الشاعر لهما معا ، فيعني ان الشاعر قد كان ، في تلك الفترة ـ على الاقل ـ أسير المفاهيم الميتافيزيكية التي تحارب كل التزام وطني وقومي ، وتتسادي في ذات الوقت « بالكوة الميتافيزيكية » في العالم المادي المجنون .. واما الالتزام الداخلي اللاحزبي ، النابع من نفوس الادباء ، فقد كان الشاعر يقصد به رفض كل القيم الثورية ، والاهتمام بالشكل وبالتجربة الشعرية الذاتية فحسب على حساب المضمون ، وعلى حساب موضعة التجارب الشعرية . وقد كان الشاعر محقا حين قال ان امثال هؤلاء الشعراء قد انحدروا . فمن المؤكد ان الانحدار هو مصير امثال هؤلاء الشعراء في مجتمع ثوري، وفي ظروف الثورة الوطنية الديموقراطية ، المتلاحمة، المستمرة في الوطن العربي .

وشيء كثير من مثل هذا التناقض تجده لدى دوستويفسكي . فقد كان دوستويفسكي مدافعا مجيدا عن الانسان ، والانسانية ، ولكنه في ذات الوقت كان يهاجم هذا الانسان ويشي به . يقول افضل دارس سوفييتي لابداع دوستويفسكي ، يوري كيرياكين ، ان من الصعب وربما المستحيل ان نجد كاتبا اكثر تناقضا من دوستويفسكي ، فمع انه كان ضحية الاوتوقراطية الا انه تغنى بها ، تغنى بالجلادين . وهو غالبا ما يتأرجح بين حرية لا حدود لها وطغيان لا حدود له ، فحين كان الجور الرهيب سائدا ، اطلق مثل هذا النداء : تواضع ، ايها الانسان المتكبر ! لقد اشار دوستويفسكي الى اخطار واقعية شتى ، غير انه عاجز عن الاشارة الى وسائل تجنبها . واذا كان قد طرح على بساط البحث قضايا كثيرة ، فانه لم يحل ولا واحدة منها . ويبدو انه لا يوقظ الناس من سباتهم الا لكي يرعبهم ويوقعهم في المأزق . والظاهر انهم كانوا على حق اولئك الذين اسموه بالموهبة القاسية واولئك الذين دعوه روحا خبيثة . فالثقة بالانسان والافتراء عليه دونما هوادة ، والثورة والاستسلام ، والرغبة في مد يد المعونة الى الشعب فورا، والامتناع عن تقديم هذه المعونة ، والاستعانة بالحقائق التي اكتشفتها الاشتراكية (فضحها وانتقادها للرأسمالية بالدرجة الاولى) . وتلك الكذبة البرجوازية والقيصرية الزاعمة بأن الاشتراكية هي « اللصوصية الشاملة » ،والدعوات المشبوهة الى ما يسمونه « عالم بلا جنسيات» ، والدعاية السافلة للشوفينية ، والمعارضة بين روسيا الشرق من جهة وبين الغرب من جهة اخرى ، والتعصب الديني وتصوير المسيحية تارة بانها نقيض الاشتراكية ، وطورا بانها تحقيق لها (الاشتراكية المسيحية) ، والحلم بفردوس ارضي ومشاهدات الرؤيا والاحلام، اللاهوتية والالحاد . طبيعة تحمل في ذاتها هويتين .كل هذا نجده عند دوستويفسكي . فالحقيقة والكذب لا يتعايشان فقط ، بل هما متداخلان ، ملتحمان معا .

ان هذا الالتحام ، التحام الحقيقة باللاحقيقة ، الوجه المشرق بالمظلم ، نجده ايضا لدى السياب .

ان ما يعوز كلا الفنانين الكبيرين هو الشجاعة .

فكل من السياب ودوستويفسكي تحسس مصير البشرية ، وكل منهما لا يبغي اقل من السعادة للجميع . الا ان كلا منهما يخشى ما يربطه الى الناس ، ومسؤوليته تجاههم . ويظل العجز يرين على وجه كل منهما ، لانهما يفتقدان اكسير الخصب ، نعني به روح النضال ، تلك الروح التي تبثها في الناس ابداعات وايتمن وغوركي ورومان رولان وايلوار وماياكوفسكي وغيرهم .

ليس مثل السياب من يحلل ادواء المجتمع . ولكن ليس مثله

من يخطيء الطريق في تشخيص الـــــداء . ان روح البرجوازي الصغير ، روح الفـــلاح ،القـــروي ــ بالدرجة الاولى ــ هي التي تظل مسيطرة طوال الوقت على خلفية اللوحة السيابية . السيـــاب فلاح . انه فـــلاح مثقف ، اذا صح التعبير وجاز . انه فـــلاح في (اساطير) ، فلاح في (المومس العمياء) ، فلاح في (الشناشيل) و (اقبـــال) . وفي حديث لي معه في مطلع الستينات (وكان هذا اخر لقائي به) ، وكنت اعذله في شيء ، قال لي : انني فـــلاح ، اعتز بالفلاحين . ليس مثل الفلاحين نقاء وثورية . قلت : والعمـــال ! قال : دونهم ، بعدهم . ولا تنسى انه لا يوجد لدينا عمال خالصون ، انهم فلاحون سابقون . وان ذات الشيء لينطبق على دوستويفسكي، وتولستوي ايضا . فكلاهما فلاح روسي (موجبيك) . وكلاهمـــا عالـــم زاخر يحفل بكل شيء . وكلاهما حافل بالتناقض ، يتنقل من الطرف الاقصى الى الطرف الاقصى في لحظة . وهكذا كان السياب ايضا.

حسنا ، ماذا نجد في العقلية الفلاحية ؟

اننا نجد فيها التطرف ، والتناقض ، والسذاجة ، والغيبية ، او الرواسب الغيبية في افضل الاحوال ، والاتكالية ، وسرعـــة الوقوع في اليأس ، والانحـــدار ، والتشاؤم ، والشكوكيـــة . واذا آمنت العقلية الفلاحية الخام بشيء من الاشتراكية ، فهو الاشتراكية الدينية . ولعله ليس غريبا ان نجد اللقاء واردا بين : السياب من جهة ودوستويفسكي وتولستوي ، من جهة اخرى ، فيما اســـمـــي بالاشتراكية المسيحية ، او ينقل : الخلاص بالمسيحية .

ومع ذلك ، فالسياب الذي يلتقي كل هذا اللقاء بدوستويفسكي بل وبتولستوي ، كما رأينا ، يظل عراقيا صميما . ولا ينبغي ان ننسى هذا الجانب ، او هذا البعد في اللوحة السيابية .

ولعل قصيدته « انشودة المطر » افضل قصيدة تكرس التزامه الثوري ، وعراقيته ووطنيته . ولا ينبغي ان ننسى ان هذه القصيدة قيلت في العهد المباد ، فاهميتها السياسية والفكرية تتضاعف مرارا. كما لا ينبغي ان ننسى ان حب الحيـــاة ــ الـــذي يـــوحـــد السيـــاب بدوستويفسكي ، بكل عباقرة الادب والفن في العالم ، ينضح من كل بيت في هذه القصيدة الرائعـــة ، التي انثالت شعرا حديثا ،والشاعر في مغتربه الذي يكدح فيه من اجل لقمة الخبز :

أصيح بالخليج : يا خليج
يا واهب اللؤلؤ والمحار والردى
فيرجع الصدى
كأنه النسيج :
« يا خليـــج
يا واهب المحار والردى »
وينثر الخليج من هباته الكثـار ،
على الرمال : رغوة الاجاج ، والمحار
وما تبقى من عظام بائس غريق
من المهاجرين ظل يشرب الردى
من لجة الخليج والقرار ،
وفي العراق الف افعى تشرب الرحيق
من زهرة يربها الفرات بالندى
واسمع الصـــدى
يرن في الخليج
« مطـــر ...
مطـــر ...
مطر ..
في كل قطرة من المطـــر
حمراء أو صفراء من اجنة الزهر .
وكل دمعة من الجياع والعراة
وكل قطرة ، تراق من دم العبيد
فهي ابتسام ، في انتظار مبسم جديد
او حلمة توردت على فم الوليد
في عالم الغد الفتي ، واهب الحياة
ويهطل المطر ...

ــ ٣ ــ

ان كلا من دوستويفسكي والسياب يكن كرها بالغا للمدينة ، في مقابل حب عارم للقرية . ان المدينة تمثل الروح البرجوازية بالنسبة الى كل من الاديبين . وليس مثلهما من كره البرجوازية والـــروح البرجوازية .

يقول كيرياكيـــن عن دوستويفسكي ، انـــه يذكر البرجـــوازيـــة ، باستمرار ، بقائمة جرائمها الطويله ، واكبر هذه الجرائم ، فـــي نظره ، هي ارادة تحقير الانسان ، والحط من قدره وجعله « خرقـــة » او « دودة » او « بقة » او ضحية او جلادا . انه يمـــــزق غرور البرجوازي الضعيف ، وينبش في اعماق نفسه ، وينفذ الى قـــاع افكاره . وحتى حين يختلف دوستويفسكي مع الاشتراكيين فـــانه يأخذ على بعضهم ــ ولم يعرف هو من الاشتراكية ولم يلتق الا باشكالها البرجوازية الصغيرة ــ الروح البرجوازية ، التي لا تجعلهم يختلفون عن البرجوازيين.ففي رواية « الممسوسون » يقول البطل نيتشايف، ان من يتأثر بالشفقة ليس بالثوري . فالثوري لا يعرف غير الهـــدم والابادة ، وهو لا يحيا الا لهذا الغرض . ومجال العمل هو التكثير من الهدم الشامل والخراب الكلي ، وان يهلك معظم الثوريين دونمـــا اثر . وفي رأيه ان الثورة تقدس كل شيء : السم ، الخنجر ، حبل المشنقة . وكان يرى ايضا ان تقديس شخصيتـــه ، ونظـــام تجسس متبادل .. وقوائم المحكومين باعدام دون محاكمة ، كانت هـــذه فـــي رأيه ، هي شروط ظفر الاشتراكية .

وما من شك ان نشاط امثال نيتشايف كان يجر الماء الى طاحون الرجعية ، انني جعلت عمدا اسـم نيتشايف مرادفـــــا للثوري والاشتراكي . ومن تناقضات دوستويفسكي انه كان لا يريد ان يرى الوجه النزور في مثل هذه الاشتراكية ، وكان يريد ان يعمم هـــذا الامر على سائر اشكال الاشتراكية . وكان للسياب نكسات فكرية شابه هـــذا (لعل احد امثلتها الصارخة ، خطابه في مؤتمر المنظمة العالمية لحرية الثقافة ، الذي عرضنا لفقرات منه) .

واذا ما عدنا الى كره المدينة وكره عالم المدينة لدى السياب وجدنا هذه الموضوعة حافلة بعشرات كثيرة توزعـــت معظـــم شعـــر السياب في كافة مراحله . فهو منذ قصائده التي اهداها الى روح (وردزورث) الشاعر الرومانتيكي الانكليزي الكبير،الى ((اساطير))،وحتى (« اقبال » و « الشناشيل ») يظل في صف القرية ، ضد المدينة، في صف الفلاحين ضد البرجوازية والروح البرجوازية . وفي « حفار القبور » و « المومس العمياء » بصفة خاصة ، يصب السياب كل لعنته على المدينة وعالمها ، رابطا ذلك ، عن وعي ، بعالم الامبريالية. ينهض حفار القبور ، ذات يوم ، ليدفن جثة انتظرها امدا طويلا ، ليحصل على النقود ، فيشق طريقه الى المدينة ، الى الحبيبة التي يشتهيها . ولكن المأساة ــ كما ارادها الشاعر ــ تقضي على احـــلام الحفـــار نهائيا ، اذ تكـــون الجثة هي جثة تلـــك الحبيبة ذاتهـــا . ويعود الحفار مع النقود الفتات .. وتظل انوار المدينة اللعينة تتحداه :

لكاد ينكر من رآها !
ماتت كمن ماتوا ، ووراها كما وارى سواها ؟
واسترجعت كفاه من يدها المحطمة الدفينة
ما كان اعطاها ــ وان حملت يد امرأة سواها
تلك النقود .. بل البقايا من نفايات المدينة ــ
وتظل انوار المدينة ، وهي تلمع من بعيد ..

ان السياب يثور ثورة قريبة من ثورة البياتي في قصيدته « مسافر بلا حقائب » (ديوانه « اباريق مهشمة ») ، حين يرفض المسافر (الابدي) أن يعود الى المدينة ، ولسان حاله : اي نفع ارتجيه ؟ .. فهذا ما نسمعه حين ينعطف بنا السياب في موضع دام في لوحته الفنية عن عالم « المومس العمياء » ، عالم الريف القتيل :

ليت النجوم تخر كالفحم المطفأ ، والسماء
ركام قار او رماد ، والعواصف والسيول
تدك راسية الجبال ولا تخلف في المدينة من بناء !
ان يعجز الانسان عن ان يستجير من الشقاء
حتى بوهم او برؤيا ، ان يعيش بلا رجاء ...
او ليس ذاك هو الجحيم ؟ اليس عدلا ان يزول ؟
شبع الذباب من القمامة في المدينة ، والخيول
سرّحن من عرباتهن الى الحظائر والحقول ،
والناس ناموا ـ وهي ترتقب الزناة بلا عشاء ..

والمدينة لدى السياب عالم نقود ، وسلطة نقود .
ان النقود هي احدى القناطر ـ الرموز ـ التي يصب فيها السياب لعنته على البرجوازية . وعالمها المقيت :

ليت السفائن لا تقاضي راكبيها عن سفار
او ليت ان الارض كالافق العريض ، بلا بحار
مازلت احسب يا نقود ، اعدكن واستزيد
مازلت انقص ، يا نقود ، بكن من مدد اغترابي
مازلت اوقد بالتماعتكن نافذتي وبابي
في الضفة الاخرى هناك فحدثيني يا نقود
متى اعود ، متى اعود ؟

ولقد كان كل نضال دوستويفسكي ، تقريبا ، موجها ضد البرجوازية . ومهما كانت افكار دوستويفسكي منقلبة ، ومهما كانت حملاته على الاشتراكية (التي لم يدرك حقيقة معناها) عارمة ، فانه لم يعتبر النظام البرجوازي حلا بديلا . انه لم يمتدح البرجوازية قط ، بل على العكس كان دائما يلعنها ويهجوها :

« ما هي الحرية ؟ الحرية . ولكن اية حرية ؟ الحرية ـ الواحدة للجميع ـ في ان يصنع المرء كل ما يريد ، دون ان يخالف القانون. ومتى يستطيع المرء ان يفعل كل ما يريد ؟ متى كان يحوز مليونا . وهل تعطي الحرية كل فرد مليونا ؟ كلا . وما هو الانسان الذي لا يحوز مليونا ؟ الانسان الذي لا يحوز مليونا ـ ليس انسانا يفعل كل ما يريد ، وانما هو انسان يصنع منه الغير كل ما يريد » .

ـ ٤ ـ

ويلتقي السياب بدوستويفسكي لقاء طويلا حافلا ، في كثير من الوسائل التكنيكية ، اذا صح التعبير .

ومع ان الورشة الروائية تختلف فيخصوصياتها المميزة وقوانينها الذاتية الخاصة عن الورشة الشعرية ، وخصوصا الحديثة منها ، ومع اننا لا نميل ـ ولا ينبغي ـ الى التبسيط او التعميم او المعادلات الميكانيكية ، الا ان الذي نريد ان نقوله ، انطلاقا من دراسة مقارنة لابداع كل من الاديبين ، ان الوحدة العضوية بين الشكل والمضمون، التي توفرت ، على نحو رائع ، لدى كل من دوستويفسكي والسياب ، كانت تقتضي انجازات ووسائل خاصة في الشكل ، والبناء ، والخلق ، كانت تتماثل ، من حيث علاقتها وطواعيتها للرؤية الواقعية وايصالها للمضمون الثوري الانساني ، في الكثير ، كما كانت توحي، وخصوصا في ظلالها ، بالكثير الذي يمكن اكتشافه دون كبير عناء ، لدى الدراسة المدققة التي سيقوم بها مؤرخو الادب يوما ما ، في حقول الادب المقارن العالمي ، والعلاقات المتبادلة بين الادب الروسي والادب العربي .

وما من شك ان السياب قرأ دوستويفسكي امدا طويلا،واستوعب افكاره (وقد صرح بذلك ، غير مرة) . كما انه قرأ اليوت ، وسيتويل ، وأودن ، وناظم حكمت ، ونيرودا ، ومايأكوفسكي ، وباوند وسواهم . غير ان التأثر الذي نراه لدى السياب هو اقوى ما يكون حين نقارن الرؤى السيابية والدوستويفسكية (وقد عرضنا لذلك ، بايجاز) ، وكذلك حين نقارن الوسائل التكنيكية لدى كل من الاديبين . ولقد اثبت الباحثون العلاقة الجدلية بين الوسيلة والغاية ، والمبنى والمعنى (كما يقال قديما) ، والسبب والنتيجة، ولا يمكن ان يكون التأثر والتماثل في الوسائل والتكنيك في الخلق الفني والتوصيل امرا طارئا،دونما دلالة . فالحق ان الدلالة واضحة، اكيدة . ولا شك ان الادب العراقي الحديث بخاصة قد استمد الكثير من رؤاه ، واغتذى واغتنى بالكثير مما تأثره من الادب الروسي، وخصوصا الادب الروسي في القرن التاسع عشر . وعلى صعيد الدراسات الادبية المقارنة ثبت تأثر يوسف ادريس ، مثلا ، بجيخوف ، والشرقاوي وبعض القصصيين بغوركي ، وكثير من الشعراء الثوريين بمايأكوفسكي .

وفيما يخص السياب ، نجد ان طبيعته الانفعالية ، العميقة، الفلاحية من حيث مردودها وتوجهها الايديولوجي تتشابه في الكثير مع طبيعة دوستويفسكي . وقد انعكس ذلك ، بشكل او باخر ، في الفن : في المضمون الفني وفي وسائله . ولا اظننا بحاجة الى المزيد من الاشارات ، من حيث المضمون . اما من حيث الوسائل التكنيكية الدرامية العامة ، فحسبنا ان نقول أن كلا من دوستويفسكي والسياب:

١ ـ يسخن ابطاله الى حد الغليان (واحيانا الى حد التمزق)، للافضاء باعتراف يكشف اعمق دخائل النفس .

٢ ـ ويتلذذ ابطاله بالالم ، ويصب الملح على الجرح ..

٣ ـ ويكثر من المونولوغ الداخلي في خلفية مخفية لا تفتقد شيئامن المقومات الاساسية والثانوية .

٤ ـ ويكثر من الحوار الدرامي ، بحيث تصبح اللوحة عامرة بجوقية ملحمية ، وبحيث يجد كل سؤال جوابا ، او ان تكون كلمة كل طرف جوابا للطرف الاخر ، الامر الذي يؤدي الى تنوع الاصوات..

٥ ـ ويشدد من التضاد كوسيلة اساسية في تعميق الشعور بالالم ، وكطريقة ونتيجة ، في آن معا ، للتسخين الداخلي والخارجي ..

٦ ـ ويميل كل منهما الى الملحمية او شبه الملحمية على الاقل ، حيث تستخدم افضل امكانات الخيال الجامح ، ويظل الابطال على الدوام في محكمة خارجية او داخلية ..

٧ ـ ويشدد من الاستبطان الذاتي في محاولة الاستغوار دخيلة النفس دلالة سيكولوجية كبيرة .

٨ ـ ويستعين بذكريات الطفولة والصبا للبطل المعين او لمجموعة الابطال ، في محاولة لتوتير الصراع ، وتشديد التضاد ، وتسخين التركيبة السيكولوجية ـ الفنية ـ الدرامية كلها ، بما فيه صالح الجو الانساني للوحة الكلية .

٩ ـ واذا ما اتى بمشاهد الطبيعة فانه لا يوردها مستقلة ، منفصلة ـ بل متداخلة ، متلاحمة مع الجو المأساوي ، بحيث تؤطر ـ وهي مؤنسنة مع عناصر الطبيعة كلها ـ للفصل الدرامي ، ولخلفية الصراع كله ..

١٠ ـ وقد يضع البطل او مجموعة الابطال في موقف تحد بطولي تراجيدي ، في الوقت ذاته ، للقدر ، غير ان هذا التحدي اقرب الى التمرد الرومانتيكي منه الى الثورة ، واحيانا يكون هذا التحدي متسما بطابع التمرد والثورة معا .. .

وعلى وجه الاجمال ، فان كلا من دستويفسكي والسياب يقدمان مختبرا سيكولوجيا ـ دراميا غنيا بالعناصر المتنوعة ، بشكل يستطيع معه العالم السيكولوجي وحتى الانتروبولوجي (احيانا) ، ناهيك عن المؤرخ ، الافادة من عناصر هذا المختبر ، ذي الدلالة الكبيرة والاصالة الحقة ، وبذلك ـ او نتيجة لذلك كله ـ تكون للوحات الدوستويفسكية والسيابية ، ولمجموع اعمالهما الفنية ـ على فارق

ما بين الشعر والرواية ـ دلالة حضارية غنية .

ولعل كل قصائد السياب في الغربة ، او جيكور ، وكل ملاحمه الصغيرة والكبيرة(حفار القبور ، المومس العمياء، الاسلحة والاطفال)، تشهد له بهذا الغنى في الوسائل التي قد يستعملها جميعا ، او يركز على بعضها .

ولوحة العراق في الغربة تمثل لاستخدام معظم الوسائل التي اشرنا اليها . ان العراق هو لازمه العمر التي لازمت السياب حتى النفس الاخير ، العراق الفني الخصيب الحبيب ، موطن الذكريات وموئل الاحلام والطموحات ، الانسان ابدا ، يقابل البحر القاسي ، والجوع والغربة ، بل يستحيل بكل غناه الى محض اسطوانة :

الريح تصرخ بي : عراق ،
والموج يعول بي : عراق ، عراق ليس سوى عراق !
البحر اوسع ما يكون وانت ابعد ما تكون
والبحر دونك يا عراق
بالامس حين مررت بالمقهى ، سمعتك يا عراق ..
وكنت دورة اسطوانه
هي دورة الافلاك من عمري ، تكور لي زمانه
في لحظتين من الزمان ، وان تكن فقدت مكانه
هي وجه امي في الظلام
وصوتها ، يتزلقان مع الرؤى حتى انام !
وهي النخيل اخاف منه اذا ادلهم مع الغروب
فاكتظ بالاشباح تخطف كل طفل لا يؤوب
من الدروب
وهي المقبرة العجوز وماتوشوش عن « حزام »
وكيف شق القبر عنهامام « عفراء » الجميلة
فاحتازها الا جديله
زهراء ، انت .. اتذكرين
تنورنا الوهاج تزحمه اكف المصطلين
وحديث عمتي الخفيض عن الملوك الغابرين ..

والعراق يقابل بالنقود القاسية ، الباردة التي لا تعرف الرحمة ولا الشفقة . والغربة تسخن كل خيالات الشاعر ، وتؤجج كل رؤاه . ولما كانت الرؤية السيابية في تلك الاونة واقعية ، فان مصطلحه الشعري ايضا واقعي ، وهو هنا قد لا يحتاج رمزا ولا اسطورة . فالحديث مباشر ، (مثل حديث ايفان لدى دوستويفسكي) :

واحسرتاه .. فلن اعود الى العراق !
وهل يعود
من كان تعوزه النقود ؟ وكيف تدخر النقود
وانت تاكل اذ تجوع ؟ وانت تنفق ما يجود
به الكرام على الطعام ؟
لتبكين على العراق
فما لديك سوى الدموع
وسوى انتظارك ، دون جدوى ، للرياح وللقلوع !

ان بيار فرخوفنسكي، احد ابطال رواية « الممسوسون » لدوستويفسكي ، يعترف صراحة انه سافل ، وليس باشتراكي . ومثل هذا الاعتراف ، ووسيلة الاعتراف ، بعد تعذيب وحوارات مختلفة ، ومونولوغ داخلي طويل ، نجده لدى سيابنا ، في عديد من قصائده، فنجده مثلا ولا حصرا في « المخبر » في قصيدة « المخبر » :

انا ما تشاء : انا الحقير
صباغ احذية الغزاة ، وبائع الدم والضمير
للظالمين . انا الغراب
يقتات من جثث الفراخ . انا الدمار ، انا الخراب !
شفة البغي اعف من قلبي ، واجنحة الذباب
انقى وادفا من يدي .. كما تشاء .. انا الحقير
لكن لي من مقلتي ـ اذا تتبعتا خطاك
وتقرتا قسمات وجهك وارتعاشك ـ آيرتين
ستنسجان لك الشراك !

يا له من تحليل ونفرس سيكولوجي ! ويا لها من صوره فنية واقعية !

واذا كان فرخوفنسكي ذاك يقول صراحة : ليس ثمة شيء اقوى من البزة العسكرية .. اني اتعمد اختراع المناصب والالقاب .. وبالطبع ، فان القوة التالية هي العواطف .. واخيرا ، فان القوة الاساسية التي تجمع بين كل الاشياء هي : عار ان يكون لي رأي .. كل عضو من اعضاء المجتمع ملزم بان يرصد جاره .. كلهم عبيد ، وكلهم متساوون في العبودية ! وفي ابسط الحالات القتل والافتراء! .. اذا كان فرخوفنسكي يدلي بمثل هذا الاعتراف ، فان « مخبر » السياب لا يقل عنه صراحة في الاعتراف ـ وهو اعتراف واقعي مائة بالمائة يأتي طوعا ، دون قسر او تعسف او افتعال ، فهو من طبيعة ومن نسيج بناء القصيدة السيابية :

الخوف والدم والصفار . فاي شيء ارتجيه ؟
فعلى يديّ دم وفي اذني وهوهة العماء
وبمقلتي دم ، وللدم في فمي طعم كريه !
اثقل ضميرك بالآثام فلا يحاسبك الضمير
وانس الجريمة بالجريمة والضحية بالضحايا
لا تمسح الدم عن يديك فلا تراه وتستطير
لفرط رعبك او لفرط اساك .. واحتضن الخطايا
بأشد ما وسع احتضان تنج من وخز الخطايا

انها لوحة ماكبثية ـ سيابية ، ولكنها تتماثل ، بشكل او باخر ، مع اللوحة الدوستويفسكية .

والتضاد قائم ، باوسع ما يكون ، لدى كل من دوستويفسكي والسياب .

انه مقوم اساسي من مقومات البناء واللوحة الفنية ـ السيكولوجية ـ الدرامية لدى كل منهما : اننا نجد النبوءة الثورية لدى كل منهما . ومن اسلحة النبوءة هنا : صدق اللهجة ، وعمق الانفعال ، والاعتماد على التضاد ، فذلك يفعل كل فعله مع السامع ، ويكسبه الى صف النبوءة . فلنسمع السياب (في قصيدته « انشودة المطر » في العهد المباد) :

اكاد أسمع العراق يذخر الرعود
ويخزن البروق في السهول والجبال ...
اكاد اسمع النخيل يشرب المطر
وأسمع القرى تئن ، والمهاجرين
يصارعون بالمجاذيف ، وبالقلوع
عواصف الخليج ، والرعود ، منشدين :
مطر .. مطر .. مطر ..
وفي العراق جوع
وينثر الغلال فيه موسم الحصاد
لتشبع الغربان والجراد ،
« وكل عام ـ حين يعشب الثرى ـ نجوع
ما مر عام والعراق ليس فيه جوع » .

ان هذا التضاد : حين يعشب الثرى نجوع ، وفي العراق جوع حين تنثر الغلال حصادها ، لا ليشبع الانسان ، بل لتشبع الغربان والجراد ، يذكر بلوحات ناظم حكمت ، وتضادها الذي ينطلق مقوما اساسا فيها ، وعنصرا من عناصر الواقعية الفنية والموضوعية فيها . ومن الناحية الايديولوجية يتماثل السياب وناظم حكمت، فالحديث لدى كليهما يدور عن لعنة الامبريالية في القرن العشرين.

يقول ناظم حكمت مثلا في قصيدته الشهيرة التي عنوانها « الرسالة السابعة الى تارانتا بابو » (من قصة مناضل اثيوبي حبيس في روما ، ورسالته هنا معنونة الى صديقة حياته في وطنه) :

ولكن من الغريب يا تارانتا بابو
ان العكس هو الصحيح هنا .
هنا عالـــم
مدهش لحد
ان الناس يموتون في سنة الفيض
ويعيشون في سنة القحط
ان الناس يهيمون في الاحياء
والاهراء مغلقة
الاهراء التي تفص بالقمح
وانوال النسيـــج
تستطيع ان تنسج من الحرير
ما يكفي لفرش الدروب
من الارض الى السماء
والناس حفاة
والناس عراة
هنا عالم
مدهش لدرجة
ان الاسماك تشرب القهوة
والاطفال لا تجـد الحليـب
وان الناس يغذون بالكلمات
بينما تغذى الخنازير بالبطاطا !

والتضاد السيابي يأتي ، اضافة الى كل ما سبق ، عاملا لا بد منه ، فيما يبدو ، للتعذيب،ولتعميق الشعور بالالم لدى المتحاورين، ولدى صاحب المونولوغ الداخلي ، ولدى السامعين جميعا.ان المومس العمياء تتذكر ، في ذروة العذاب والجوع ، احلى ذكرياتها :

سرب من البط المهاجر ، يستحث الى الجنوب
اعنافه الجذلى تكاد تزيد من صمت الغروب

لكن الذكريات اللعينة لا تلبث ان تنثال امعانا في التسخيـن ، وتعميقا للتضاد ، وتكريسا للالم :

يا ذكريات ، علام جئت على العمى وعلى السهاد ؟
لا تمهليها ، فالعذاب بأن تمري في اتئاد
قصي عليها كيف مـات وقد تضرج بالدماء
هو والسنابل والمساء ..

ويهتف السياب ، على طريقة دوستويفسكي وابطالـه ، وعلـى نحو مباشر ، وبلغة واقعية ، في قصيدته « المومس العمياء » ، بالعـــراق ، ويستصرخ العدالة فيه (عدالة العهد المباد التي تجعلها تدفع ثمن مصباح لا ترى نوره ، مذكرا بمأساة النفط العراقي الذي كان ينهبه المحتلون واذنابهم) . ونجد هنا كل الوسائل السيابية ـ الدستويفسكية من تسخين وتضاد وتلذذ بالالم :

ويح العراق : اكان عدلا فيه انك تدفعين
سهاد مقلتك الضريرة
ثمنا لملء يديك زيتا من منابعه الغزيرة ؟
كي يثمر المصباح بالنور الذي لا تبصرين ؟

او خـذ مثلا هذه اللوحـــة :

... وكزارع لهم البذور
وراح يقتلع الجذور
من جوعه ، واتى الربيع فما تفتحت الزهور
ولا تنفست السنابل فيه ..
ليس سوى الصخور
سوى الرمال سوى الفلاه

خنت الحياة ، بغير علمك ، في اكتداحك للحياة !
كم رد موتك عنك موت بنيك . انك تقطعين
حبل الحياة لتنقضيه وتضفري حبلا سواه
حبلا به تتعلقين على الحياة : تضاجعين
ولا ثمار سوى الدموع وتاكلين ،
وتسهرين ولا عيـون ، وتصرخين ولا شفاه ،
وغـدا بحبلك تشنقيـــن ..

هنا كثير من فلسفة السياب . الانسان هو المذنب : الانسان الظالم . والسياب ، هنا ، يبالغ في رصف الظلمات بعضا فـــوق بعض ، ويحيطنا بجو مأساوي داكن ، تكون الكوة فيه معجزة ، او هكذا يتراءى لنا . ان المومس نفسهـــا ، وهي الضحية ، تعتـــرف بانها هي المذنبة : « خنت الحياة » ، ولكن التفسير يأتي في (بغيـر علمك) . ومع ذلك ، فهذا الذي خيل لنـا ، ويخيـل لغيرنـا ، فـي سلبية عطاء المأساة عند الشاعر ، ليس هو صحيحا تماما . فالشاعر انما يبالغ في تعذيب ضحيته ، ويطرحها في عناء صخرة سيزيـف حملا وصعودا ، فليصل من ذلك الى اتهام نظام الحكم نفسه انذاك ، ذلك النظام الذي تدفع فيه المومس الضريرة ثمن المصباح الذي يعني انها ساهدة ، وهي لا ترى ! النظام الذي لا يعطي الكادحين ، ومنهم الخاطئة الفلاحة ، شيئا سوى الموت !

وقد فعل دوستويفسكي ، قبل السيـــاب ، ذات الشيء فـي (الابلـــه) و (الجريمـة والعقاب) و (الاخـوة كارامازوف) و (مذكـرات ..)

ـ ٥ ـ

حسنا .. واين يفترقان ؟

الجـواب هنا واضح وبسيط لا يتطلب اعمال جهد كبير .

انهما يفترقان في العصر وروحه . فمع الواقعية الانتقاديـة التي جمعتهما (دون ان ننسى الاختلافات والفروق في التـــلاوين المحليـة والمعطيات الزمانية والمكانية والذاتية والموضوعية) ، ومـع الاتفاق في المنظور ، والرؤيا ، في مواضع غير قليلة ، وكذلـــك الاتفاق او التماثل في استعمال الوسائل ، وفي اعتماد التحليـل النفسي والبناء السيكولوجي ـ الدرامي .. مـع كل هـذا وغيـره (مما ذكرناه ومما فاتنا ذكره ، ونتركه للتاريخ ولمحاولات افضل) ، يظل السيـاب اكبر بعصره ، وبرؤيا ورؤية عصره ، والفضل فـي ذلـك للقرن العشرين الذي يفوق ، طبعا ، القرن التـــاسع عشر، على كل صعيد ، وفي كل مستوى .

.. ان السياب يظل ، مع كل شيء ، متفائلا : ويظل السياب متحددا بالزمان والمكان . فهو عربي الوجه ، عربي التوجه ، يغنـي وطنه العربي مثلما يغني عراقه ، ومثلما يغني الانسان كله في الارض كلهـا . ويظل الحس الطبقـي ، التاريخي في قصائـده الاولـى بل والاخيـرة ايضـا ، ماثلا للعيان ، فيما يغيـــب ذلـك لدى دوستويفسكي ، حيث يعتمد ، فـي بعض اعماله ، الانســان المجـرد المطلق ، ليعارض به الانسان المحدد ، في الظرف المحدد .

وكان دوستويفسكي يدعي « النبوءة » بالمعنـى الحرفي ، وهـو هنا ـ الديني ـ ، بل ان انصاره ومعجبيه الكثيرين كانوا يعتقدون انه نبي فعلا . ولعـل هذا متأت من صحة معظم ما تكهـن بـه . وقـد كتـب دوستويفسكي نفسه ، ذات مرة ، بهذا الصدد ، فقال : « انا لســـت غير واقعي ، بارفع معنى لهذه الكلمة ، اي انني اكشف كافة اعمـــاق النفس البشرية .. ولي عن الواقع والواقعية فكرة ليست كفكرة واقعيتنا ونقادنا . ان الواقعية لا تكشف واحدا بالمائـــة من الوقائع الحسية ، التي حصلت فعلا ، فيما قد تنبأنا بها نحـن ،

الم يحدث ذلك فعلا ؟ » ..

ويقول البرفسور كيرياكين ، بهذا الصدد ، انه اذا كانت بعض تنبؤات دوستويفسكي قد تحققت فتفسير ذلك عقلاني محض وليس صوفيا قطعيا . فمن ناحية ، كان دوستويفسكي يريد استباق المستقبل باساليب خاصة بالفن ، ومن ناحية اخرى ، لا ينبغي ان ننسى انه في زمانه كانت بداية نشوب المعركة الايديولوجية التي سبقت المجابهة المباشرة بين القوى الاجتماعية المختلفة ، هذه المجابهة التي بلغت ذروتها في عصرنا .

ولم يكن السياب يدعي النبوءة ، ولكنه كان قد تنبأ في شعره وفي مجمل ابداعه بكثير مما حدث للعراق وللوطن العربي ، فقد تنبأ بسقوط عهد التحكم الامبريالي وصنائعه في العراق ، وتنبأ بعد ذلك بسقوط عهد قاسم الدكتاتوري (جيكورياته الاخيرة) ، وتنبأ بتاميم الزيت في العراق ، وارهص مناخه الايديولوجي ـ الاستاتيكي ـ الشعري في (الاسلحة والاطفال) خصوصا ، وقصائده الملتزمة ، بنبوءة ظفر الاشتراكية .

وبالطبع فالفارق كبير بين نبوءات دوستويفسكي ، بالشكل الذي كانت تقع به ، وبين نبوءات شاعرنا العربي ـ الحديث في القرن العشرين ، ومرة اخرى ـ هو فارق الظرف والعصر والزمان والمكان (والتلاوين الذاتية والمحلية). غير ان السياب لم يكن مثل دوستويفسكي في اكتشافاته ، رغم ان خيال السياب لم يقل في رحابته وطواعيته للاتساع ، من خيال دوستويفسكي .

وكان كل من السياب ودوستويفسكي يؤمن بما يكتب ، الا انه لوحظ ان السياب كان يضيق ـ في آخر حياته ـ ببعض ما آمن به سابقا ، وببعض ما امن به لاحقا . كما كانت احاديثه النثرية لا يجمعها جامع مع قصائده واشعاره ، فقد بلغ بها الاسفاف مبلغا مخجلا . وقد قلت للسياب مرة : لماذا لا تصوغ ما « تهذر » به في الصحف شعرا ؟ قال : لا استطيع ذلك ، فالشعر شعر ، و « التنفيس » عما يعتلج في النفس باحاديث صحفية شيء آخر .» اما دوستويفسكي فكان يؤمن بكل كلمة قالها ، ويثير عواصف الجدل ، سواء في ابداعاته ، او في احاديثه ومناقشاته في الصحف وفي مجالسه ربما يشبه هوس المهووسين .

ويفضل السياب دوستويفسكي ـ اذا صح لنا مثل هذا التعبير في كونه قد صمد بوجه المحن والمرض والموت الذي كان يغتاله ببطء وكل يوم ، ولم ينهر شعريا . كان « أيوب » الشعر العربي الحديث، وكان يتألم ، ويتعذب ، ولكنه لم يكن يتلذذ بالالم ، ولا بالمحنة ، بل كان يجتلوها ويكابدها ، فيما يفيض شعرا (وهنا بالذات ولدت دواوينه الاخيرة (المعبد الغريق ، منزل الاقنان ، الشناشيل،اقبال) وقصائد اخرى .

اما دوستويفسكي فكان يقدس الالم ، ويتلذذ به ، وكان يمجد عالم انسان الكهف ، عالم الانسان « السافل » (على حد ما يقول يوري كيرياكين) . كان يزعم بعدم وجود ضمائر نقية ، وكان يرى الناس كلهم جديرين بالاحتقار والكراهية . وكان لوناجارسكي يقول عن دوستويفسكي انه سم بالنسبة الى الاخرين (وهو يقصد افكاره المهووسة البالغة الظلامية والسلبية في بعض مجالاتها) . ومع ذلك فان لينين قال عن دوستويفسكي ، انه اديب عبقري عكف على درس ادواء مجتمع عصره ، واننا نجد عنده ، الى جانب كثير من التناقضات والتمزقات ، لوحات حية عن الواقع » .

ان افتراقات السياب ودوستويفسكي لا تستثني لقاءهما الحميم ، بل تتطلبه ، تطلب الليل للنهار .

ـ ٦ ـ

وختاما ، فالفنانان المفكران : دوستويفسكي الروسي والسياب العربي ، يلتقيان في صعيد الانسانية وتمجيدها ، وعلى ثرى الحياة العريضة .

يقول السياب في قصيدته « رسالة من مقبرة » ، حول الثورة الجزائرية :

هذا مخاض الارض لا تياسي
بشراك يا اجداث
حان النشور !
بشراك .. في « وهران » اصداء صور
سيزيف القى عنه عبء الدهور
واستقبل الشمس على « الاطلس » !

ويقول أيضا في قصيدة له اخرى عنوانها « في المغرب العربي » :

تمخضت القبور لتنشر الموتى ملايينا
وهبّ محمد والهه العربي والانصار :
ان الهنا فينا .

اجل ، ان الهنا فينا . ان السر في الانسان نفسه . ففيه انطوى العالم الاكبر . ومنه البدء واليه الانتهاء . ومثل ذلك ماتوحيه للسياب معركة بور سعيد عام ١٩٥٦ ، حيث تنتصر الحياة ، رغم كل شيء :

انسانك العملاق : ظل الاله
ظل الملايين التي مقلتاه
عنها ترى ما في خيال تراه ،
هذا الذي اعصابها في قواه ـ
أحيي دم الموتى ، فخرّ الطغاة !
فليحرس الاحياء باب الحياة !

« فليحرس الاحياء باب الحياة ! » ـ هكذا تكون اللازمة السيابية ، وهي قريبة جدا من اللازمة الدوستويفسكية التي ابتدانا بها حديثنا هذا .

ويقول دوستويفسكي نفسه في اعترافاته :

« اني ، رغم كافة الخسائر ، أحب الحياة حبا متوقدا ، احب الحياة للحياة ، واقول هذا بكل جدية ، واني انوي حتى اليوم ، ان ابدأ حياتي من جديد .. تلك هي السمة المميزة لطبعي ، وربما لعملي كذلك . »

وفي اعترافات السياب واحاديثه الشعرية والنثرية شيء قريب جدا من هذا .

ـ ✶ ـ

وبعد ، فهذان اديبان عبقريان : روائي من الفولغا ، وشاعر من بصرة العراق ، وحدتهما الرؤيا ، في كثير ، وجمعهما الادب الانساني ، والاسلوب الواقعي ، والنبوءة الثورية ، وعمق الاستبطان النفسي والاستفوار الوجداني ، وحب الحياة حبا عارما . وقد تعرض كلاهما لكثير من النصب والعذاب ، الا ان ابداعهما الفني افاد ، كثيرا ، من انفعالهما النبيل ، ومن حياتهما المضنية التي كان الوقود فيها الاعصاب ، وكان الوقد فيها (عموما) الايمان بالانسان ، وطاقته العملاقة على المقاومة ، والانتصار في خاتمة المطاف ، انتصار الحياة على الموت وعلى اعداء الحياة مهما كانوا .

بغداد

مكتبة النوري
دمشق ـ تجاه البريد العام
وكيلة منشورات دار الآداب وكبرى دور النشر اللبنانية والعربية في القطر السوري .